الهرمنيوطيقا وأصول الفقه
- دراسة مقارنة بين النظريّة القصديّة في الفهم ومنهج أصول الفقه -

د. علي رضا عابدي سرآسيا[١]

مقدّمة: معنى القصديّة ومحوريّة المؤلّف:

يوجد نظريّتان مهمّتان وأساسيّتان في مجال المعاني وتفسير النصّ، وهما: القصديّة واللاقصديّة. ويمكننا في هذا الإطار تقسيم نظريّات الهرمنيوطيقا إلى فئتين «**الهرمنيوطيقا القصديّة**»، و«**الهرمنيوطيقا اللاقصديّة**».

إنّ النظريّة المشهورة وصاحبة السابقة الأطول في مجال كشف معنى النصّ تدور مدار كون المؤلِّف مصدر المعنى وصانعه، وهو الذي يرسم حدوده (أو أنّه على الأقلّ أحد العوامل المؤسّسة للمعنى).

وقد دخلت هذه النظريّة إلى معترك التفسير - أيضاً -، متوخية كشف نيّة المؤلّفين ومقاصدهم في عملية فهم النصوص وتفسيرها. ويشار إلى هذه النظريّة عادة بـ«**القصديّة**» (Intentionalism)، وأحياناً «**أيديولوجيّة المؤلّف**» (The Ideology of the Author)[٢]. وبحسب اصطلاح علم المعنى

(١) دكتوراه في فقه الحقوق الإسلاميّة وميانيها، جامعة فردوسي، مدينة مشهد المقدّسة.

(2) Allen, Graham, Intertextuality, New Critical Idiom, Taylor & Francis Routledge, London & New York, 2000, p72.

(سيميولوجيا)، يتعارف عليها بنظريّة «**القطع بقصد المؤلّف**»[١]. ويشار إلى هذه النظريّة بالفارسية عادةً بـ«**مؤلّف محوري (محورية المؤلّف)**».

وقد وردت عدّة تحديدات للقصديّة، منها:

- «**القصدية هي: الاعتقاد أو الافتراض بأنّ قصد المؤلّف المصرّح به أو الضمني يعيّن معنى النصّ**»[٢].

- «**القصدية هي: نظريّة تفيد أنّ مقاصد الفنّانين الحقيقية مرتبطة بالأعمال التي يبدعونها**»[٣].

- «**القصدية هي: فرضيّة الهويّة. وتفيد بأنّ معنى النصّ يتعيّن من خلال ما يتطابق مع قصد المؤلّف**»[٤]. وهذا العنوان - بحسب تعبير البعض - ملصقٌ وضعه بردزلي على نظريّة هيرش[٥].

وجميع هذه التعاريف في الحقيقة عبارةٌ عن تفسير مضيّق للقصديّة، ولا تشمل أقسامها المختلفة. لعلّنا إذا أخذنا الأقسام المختلفة للقصديّة بعين الاعتبار، نستطيع القول: إنّ التعريف الآتي أكثر جامعيّةً من التعاريف الأخرى، وهو: «**القصديّة عبارة عن النظريّة القائلة: إنّ معنى النصّ وتفسيره مرتبط بمقاصد صاحب النصّ، أو إنّه من خلالها يمكن تعيينه**»[٦].

وعندما نقارن بين اصطلاحي «**القصديّة**» و«**محوريّة المؤلّف**» لا بدّ

(١) فضيلت، محمود: معنا شناسي ومعاني در زبان وأدبيات [علم المعاني والمعاني في اللغة والأدب]، ط١، كرمانشاه، نشر جامعة رازي، طباعة ونشر دار طاق بستان، ١٣٨٥هـ.ش، ص١٦٥.

(2) www.thefreedictoinary.com/intentionalism; www.bartleby.com/61/5/I0180575

(3) Noel, Carroll, "Interpretation and Intention: The Debate between Hypothetical and Actual Intentionalism", In Journal: Metaphilosophy, Volume 31 Issue 1 & amp; 2, 2000, Pages 75 (Published Online: 24 Jan 2003).

(4) Mantzavinos, Chrysostomos, Naturalistic Hermeneutics, Translated from German by Darrell Arnold, Cambridge University Press, Cambridge, New York, Melbourne, Madrid, Cape Town, Singapore, Sao Paulo, 2005, p147.

(5) Mikkonen, Jukka, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, Published, January 27, 2009, chapter2; Lamarque, Peter, "The Intentional Fallacy", in Waugh, Patricia, Literary Theory and Criticism: an Oxford guide, Oxford University Press Inc., New York, 2006, p179.

(٦) عبارة «معنى أو تفسير» يقصد بها الإشارة إلى القصديّة المعنائيّة والتفسيريّة؛ أمّا كلمة «مقاصد»، فتشمل كلّ أقسام القصد التي سيأتي ذكرها؛ أمّا كلمة «مرتبط»، فتشير إلى القصديّة الشموليّة، كما يراد من كلمة «تعيين» القصديّة الحصريّة. وبالرغم من أنّ القصديّة الحصريّة تفيد أنّ المعنى أو تفسير النصّ «مرتبط» بالقصد نوعاً ما؛ إلا أنّ عبارة «يمكن تعيينه» جاءت لتؤكّد وجود مقاربتين مختلفتين ولتشير إليهما.

من الإشارة إلى أنّه برغم تساوي هذين الاصطلاحين بحسب الظاهر. ولكنّ قليلاً من الدقّة ينبئنا بأنّ محوريّة المؤلّف أعمّ من القصديّة، وتشمل نظريّتي القصديّة والذهنيّة«**الاتّجاه الذهني**» (وسيأتي التفصيل أكثر في هذه الفكرة بعد التطرّق إلى القصد النفسيّ «**السيكولوجيّ**»).

وتعدّ نظريّة القصديّة النظريّة التي تبنّتها الغالبيّة الساحقة من مفكّري ما قبل القرن العشرين، وبرغم وجود أتباع للقصديّة بين مؤيدي الهرمنيوطيقا الحديثة[١]، لكنّها تعدّ المبدأ الأساس للهرمنيوطيقا الكلاسيكيّة.

إنّ الذين يعدّون اكتشاف قصد المؤلّف في التفسير غير ممكن وغير راجح، أو لا يعترفون بأيّ مصدريّة وفاعليّة للكاتب في معنى النصّ (أي يعتبرون معنى النصّ أجنبيّاً بالكامل عن المؤلّف وقصده)، هم فئة تقع في الجهة المقابلة لجماعة القصديّين. وتسمّى هذه النظريّة المعاكسة للقصديّة، «**اللاقصديّة**» (Anti-intentionalism)[٢]، وتسمّى «**نظريّة موت المؤلّف**» (The Death of the Author)، حين تتّخذ منحىً متطرّفاً (رولان بارت).

وفي العصر الحالي، مع اشتداد موجة اللاقصديّة المقابلة لـ«**القصديّة**»، لا زالت هذه النظريّة تحصد الكثير من المؤيّدين[٣]. وبرغم التعامل مع التفسير القصدي بوصفه مغالطة لعقود من الزمن، ولكنّه شرع باستقطاب أتباعٍ له بين فلاسفة الفنّ»[٤].

(١) انظر: أحمدي، بابك: ساختار و تأويل متن [هيكليّة النصّ وتأويله]، ط١٠، طهران، نشر المركز، ١٣٨٨هـ.ش، ص٤٩٧.

(2) Spoerhase, Carlos, Hypothetischer Intentionalismus, Rekonstruktion und Kritik, Citation Information. Journal of Literary Theory. Volume 1, Issue 1, Pages 81-110, August, 2007, p81; Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter1; Stecker, Robert, Interpretation and Construction Art, Speech, and the Law, Blackwell, The United Kingdom, 2003, p208.

(٣) انظر: هوي، ديفيد كوزنز: حلقة النقد – الأدب، التاريخ وهرمنيوطيقا الفلسفة –، ترجمة: مراد فرهاد بور، ط٣، طهران، نشر روشنكران ومطالعات زنان، ١٣٨٥هـ.ش، ص٧٣-٧٤؛ أحمدي، ساختار وتأويل متن [هيكليّة النصّ وتأويله]، م.س، ص٥٩٠.

(4) Noel,"Interpretation and Intention: The Debate between Hypothetical and Actual Intentionalism", p75.

يقول فانهووزر (Kevin J. Vanhoozer) وهو أحد المعاصرين والكتّاب في هذا المجال: «**لا زال القصد هو الأساس والهدف والمرشد في تفسير النصّ**»[1].

أولاً: مفهوم القصد والنيّة وأقسامهما:

إنّ كلمة «**قصد**» و«**نيت**» بالفارسيّة يعادلها «**المقصود**» و«**المراد**» و«**المرام**» في العربيّة، و«intention» و«intent» بالإنكليزية. وهذه معانٍ متشابهة وواضحة تقريباً. أمّا المقصود من هذه المفردة في عبارة «**قصد المؤلّف**»، فهذا ما يلفّه الإبهام والاختلاف، وبالتالي يؤدّي إلى ظهور أقسام جديدة لهذه المفردة. وسوف نفصّل الكلام في أهمّ هذه الأقسام فيما يأتي (وهي أقسام قد تتداخل فيما بينها:

١. القصد النفسيّ (السيكولوجي) (Psychological Intentionality) **والقصد الظاهراتي (الفينومينولوجي)** (Phenomenal Intentionality):

يتعلّق القصد النفسيّ بالفاعليّة النفسيّة للمؤلّف بالنسبة لإبداع النصّ. وهو في الواقع مجموعة من التصوّرات الواعية واللاواعية التي يحملها المؤلّف عن موضوع خاصّ أو مفردةٍ معيّنة. أمّا القصد الظاهراتيّ، فيعنى به توجّه الذهن نحو شيءٍ ما؛ وهو المعنى الذي يتعيّن من خلال التوجّه الواعي للمؤلّف؛ وذلك من بين معانٍ متعدّدة ومحتملة للنصّ؛ المعنى الذي يحاول المؤلّف – عادةً – إيصاله إلى المخاطبين وإفهامهم إياه، وبعبارة واضحة، يعتبره المعنى الصحيح لنصّه.

وبما أنّ القصد الظاهراتي أمرٌ واعٍ بالكامل (خلافاً للقصد النفسي الذي قد لا يكون واعياً)؛ وبما أنّ المؤلّف يكون عادةً بصدد إيصال قصدٍ كهذا والتعبير عنه، فهذا يعني أنّه سيتحقّق نسبيّاً في النصّ، وسيترك

(1) Wolterstorff, Nicholas, Resuscitating the Author, in Kevin J. Vanhoozer, James K. A. Smith, and Bruce Ellis Benson (Ed.), Hermeneutics at the Crossroads, Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis, USA 2006, p48.

آثاره الواضحة؛ وسوف «**يخترق (قصد المؤلّف) النصّ ويتمثّلُ فيه**»[١].

وهذه الآثار والعلامات التي يتركها القصد، ويطلق عليها اسم «**التصريح أو التصريح بالقصد**»[٢]، تتّسم بصبغة ألسنيّة (Linguistic) بالكامل، وهي مأخوذة من المشتركات المتبانى عليها في اللغة. لعلّنا بسبب هذا، أو بلحاظ سعي المؤلّف – عادةً – لاستخدام العلائم اللغويّة للتعبير عن قصده هذا، نستطيع أن نطلق اسم «**القصد الألسني**» كذلك عليه[٣].

وإذا أردنا التدقيق في المفهوم لا يصحّ لنا إطلاق اسم قصد على القصد النفسيّ؛ إذ إنّ القصد عبارة عن توجّه الذهن بوعي نحو شيءٍ ما. والحال أنّ هذا المفهوم لا يصدق على «**مجموعة التصوّرات الواعية واللاواعية التي يحملها الشخص تجاه شيء ما**». أمّا النظريّة التي تريد اكتشاف هذا النوع من التصوّرات، فهي ذهنيّة [ذات اتّجاه ذهني] نوعاً ما، وتهدف إلى اكتشاف المؤلّف وليست قصديّةً تهدف إلى اكتشاف القصد [المراد]. وبناءً على نظريّات الدلالة، يمكننا أن نصوغ هذا النوع من فهم المعنى على هذا النحو: إنّ معنى كلّ مفردة هو عبارة عن التصوّر الذهنيّ (أو التصوّرات الذهنيّة) المقترنة بتلك المفردة في أذهان الناطقين»[٤]. ولعلّنا مع قليل من الدقّة نستطيع أن نعدّ هذا نوعاً من «**محورية المؤلّف**»؛ بمعنى تقسيم محوريّة المؤلّف إلى قسمين: القصديّة والذهنيّة [الاتّجاه الذهنيّ]. وعلى هذا الأساس، ستكون محوريّة المؤلّف أعمّ من القصديّة.

(1) Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter3.

(2) Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter3; Stecker, Interpretation and Construction Art, p32.

(٣) للاطّلاع على أنموذج، انظر: نظريّة هيرش في القصد: هوي، حلقة النقد – الأدب، التاريخ وهرمنيوطيقا الفلسفة–، م.س، ص١٠١؛ أحمدي، ساختار و تأويل متن [هيكليّة النصّ وتأويله]، م.س، ص٥٩١–٥٩٢، ٥٩٤.

(٤) فضيلت، معنا شناسي ومعاني در زبان وأدبيات [علم المعاني والمعاني في اللغة والأدب]، م.س، ص٨٢–٨٣.

٢. القصد المعنائيّ، القصد المقوليّ، والقصد المحفز:

يجري التمييز - أحياناً - بين نوعين من مقاصد المؤلّف: المقاصد المعنائيّة (Semantic Intentions) والمقاصد المقوليّة (Categorial Intentions)[١]، وهناك نوع آخر تجدر إضافته - أيضاً - وهو: المقاصد المحفزة.

وترتبط المقاصد المعنائيّة بمعنى خاصّ يقصده المؤلّف دون غيره من المعاني المختلفة لمفردة أو عبارة ما؛ فقد يقصد المؤلّف - مثلاً - من [كلمة شير الفارسيّة في] عبارة «(**شير**)[٢] **في البادية**»؛ يعني «**الحيوان المسمّى (شير) الموجود في الصحراء**»، ولا يقصد «**السائل المشروب المسمّى (شير) والموجود في الوعاء**». أمّا المقاصد المقوليّة فهي ترتبط بنوع ومقولة خاصّين يختارهما المؤلّف من بين سائر الأنواع والمقولات المختلفة (وبعبارة أخرى من بين الأنواع الأدبيّة)؛ فقد يكتب المؤلّف - مثلاً - كتابه الفلاني، وهو يريده كتاباً فكاهيّاً لا جدّيّاً، أو يكتب نصّاً قصصيّاً لا علميّاً. أمّا المقاصد المحفزة فهي تلك المرتبطة بالحافز الذي أدّى إلى تدوين النصّ، فقد يكتب المؤلّف كتابه الفلاني بهدف الشهرة أو المردود الماليّ.

ويعتقد البعض أنّ ما أراده وولف (F.A. Wolf) وكلادنيوس (Chladenius, Johann Martin) وغيرهما من منظّري عصر التنوير من «**قصد المؤلّف**»؛ هو القصد المقولي؛ وإنْ لم ينكروا القصد المعنائيّ: في الأساس «**لم يكن لدى وولف مشكلة بالنسبة لمعنى نصّ مفترض، فهو يرى أنّه إذا استخدمت الكلمات والجملات بطريقة صحيحة سوف تبقى توصل المعنى الذي قصده المؤلّف**»[٣].

(1) Lamarque, Peter, "The Intentional Fallacy", in Waugh, Patricia, Literary Theory and Criticism: an Oxford guide, Oxford University Press Inc., New York, 2006, p186; Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter2.

(٢) كلمة «شير» في الفارسية مشترك لفظي، وقد تعني أحد ثلاثة معانٍ: الأسد، أو الحليب، أو الصنبور (الحنفيّة).

(٣) ريخته كران (Rikhtegaran)، ص٥٧-٥٨، ٦٢-٦٣.

٣. القصد الواقعيّ والقصد الافتراضيّ:

القصد الواقعيّ (Actual Intention) هو الشيء الذي قصده المؤلّف الحقيقيّ واقعاً، ويقابله القصد الافتراضيّ (Hypothetical Intention)، وهو ما يتلقّفه المخاطب المثاليّ؛ باعتبار أنّه قصد المؤلّف. وسيأتي تفصيل الكلام أكثر في هذه النقطة تحت عنوان «**القصديّة الواقعيّة والافتراضيّة**».

٤. القصد الداخليّ والقصد الخارجيّ:

القصد الداخليّ هو قصد المؤلّف الذي تحقّق في النصّ بمستوى جيّد؛ بحيث يمكن ذِكْر شواهد وأدلّة معتبرة من النصّ (أو ما هو متّصل به)[١] لتحديده، خلافاً للقصد الخارجي، الذي لم يتحقّق في النصّ، ولا شواهد خاصّة من النصّ (أو متّصلة بالنصّ) تساهم في تحديده.

والقصد الداخلي هو ما تعيّنه الشواهد النصّيّة ويُؤيّد بها، أمّا القصد الخارجيّ، فيمكن تحديده من خلال شواهد من خارج النصّ.

ومن جهة أخرى علينا أن نقسّم القصد الخارجيّ وفق الاصطلاحات الأصوليّة إلى: قصد مخالف للنصّ، وقصد مخالف للظاهر[٢]، حيث ينسجم القصد المخالف للظاهر مع أحد المعاني المحتملة للنصّ، وإنْ كان معنى مرجوحاً وضعيفاً، وبهذا يكون مدعوماً من النصّ نوعاً ما[٣]؛ أمّا القصد المخالف لنصّ الكلام، فلا ينسجم مع أيٍّ من احتمالات معنى النصّ، وبالتالي لا يكون مدعوماً من النصّ، وتكون نسبته إلى النصّ ناقضةً له

(١) المراد من المتّصل بالنصّ هو ما يصطلح عليه في أصول الفقه بـ«القرائن المتّصلة»؛ من قبيل: الشواهد اللفظيّة الواردة في النصّ، وفهم المخاطبين العرفي، وسياق الكلام. طبعاً، لا بدّ من الإلتفات إلى أنّ المراد هو الشواهد المتّصلة بالنصّ، لا تلك المتّصلة بالعبارة التي يُراد تفسيرها بعينها؛ فإذن، وفقاً لهذا الاصطلاح تحسب العبارة الواردة في آخر النصّ، والتي تفسّر العبارة الواردة في البداية (الشاهد اللفظيّ الوارد في المتن)، قرينة متّصلة بالنصّ؛ وإنْ كانت بالنسبة إلى تلك العبارة منفصلة. وفي الواقع، تعبّر هذه العبارة المُفَسّرة عن القصد الذي يعدّ داخليّاً بالنسبة للنصّ وتعيّنه.

(٢) كلمة «نصّ» يصطلح بها على العبارة التي يكون مراد صاحبها منها واضحاً تماماً، ولا تحتمل أكثر من معنى واحد؛ ويقابله اصطلاح «ظاهر»، حيث يُطلَق على العبارة التي يوجد فيها احتمالات عدّة للمعنى الذي يريده المتكلّم، ولكنّ أحد هذه الاحتمالات يكون أقوى وأظهر؛ بناءً على القواعد اللغويّة والتخاطبيّة. لمزيد من التوضيح، انظر: مشكيني، علي: اصطلاحات الأصول ومعظم أبحاثها، ط٤، قم المقدّسة، طبع الهادي، ١٤١٣هـ.ق/ ١٣٧١هـ.ش، ص٢٣٢.

(٣) انظر: القصديّة الواقعيّة المعتدلة في هذه المقالة.

متصرّفةً في عباراته. وهكذا يكون القصد الداخلي في الواقع موافقاً لنصّ الكلام أو ظاهره، بينما يتعارض القصد الخارجيّ مع نصّه أو ظاهره[١].

٥. القصد الواقعيّ والقصد الظاهريّ:

يستشفّ من بعض العبارات الأصوليّة أنّ هدف الفهم - أحياناً - يكمن في اكتشاف المراد الواقعيّ. ولهذا يجب التركيز على الظهور الواقعيّ المتشخّص. والحالة الوحيدة التي يمكننا أن نعمل معها - في موارد كهذه - وفق ظاهر الكلام هي حين يصل المفسّر إلى درجة الاطمئنان بأنّ الظاهر من الكلام نفسه مقصود المتكلّم. أمّا حين نريد فهم النصوص الشرعيّة - حيث المقام مقام احتجاج والتزام بالكلام - فالهدف من الفهم هو الوصول إلى «**الحجّيّة**»، لذا كان الظهور النوعيّ كافياً؛ وبعبارة أخرى، يكفي أن تكون العبارة ذات شأنيّة وقابليّة لإفادة معنىً ما بنسبة احتماليّة أكبر، وأن تفيد هذا المعنى وفقاً للعارفين بتلك اللغة (فيعتبرون هذا المعنى بالتالي مقصوداً لصاحب العبارة)، ولا حاجة لأنْ يحصّل المفسّر الاطمئنان أو حتى الظنّ بأنّ الظاهر من العبارة هو - أيضاً - مقصود صاحبها[٢].

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ الكلام المذكور سابقاً لا يتنافى مع القصديّة؛ بل على الأكثر يقسّمها إلى قسمين. فهؤلاء هم - أيضاً - من القصديّين؛ أولاً: جميع أصوليي الإماميّة قصديّون. وسيأتي الكلام في هذا لاحقاً. وقد صرّحوا في كثير من الموارد في تأليفاتهم، أو أشاروا إشارةً إلى أنّ الهدف من فهم النصوص الشرعيّة التوصّل إلى قصد صاحب النصّ، وثانياً:

(١) لا بدّ من التأكيد في موارد كهذه على أنّ المقصود من النصّ هو النصّ بأكمله؛ بوصفه نسيجاً واحداً، وليس بوصفه عبارة خاصّة في قسم منه.

(٢) انظر: الخراساني، محمد كاظم: كفاية الأصول، ط١، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدّسة، ١٤٠٩هـ.ق، ج١-٢، ص ٥٤٦-٥٤٧؛ الخوئي، أبو القاسم: أجود التقريرات (تقريرات بحث الميرزا النائيني)، ط٢، نشر مؤسّسة حكم للمطبوعات الدينّية؛ مطبعة أهل البيت عليهم السلام، ١٤١٠هـ.ق، ج٢، ص٩٤؛ منتظري، حسين علي: نهاية الأصول (تقرير بحث آية الله حسين الطباطبائي البروجردي)، ط١، قم المقدّسة، طبع قدس، ١٤١٥هـ.ق، ص٤٦٩؛ الصدر، محمد باقر: دروس في علم الأصول (الحلقات)، ط٢، دار الكتاب اللبنانية؛ مكتبة المدرسة، ١٤٠٦هـ.ق، ج٢، ص١٧١.

ليس للتركيز على ظهور الكلام أهمّيّة مستقلّة بذاتها، بل إنّ أهمّيّته نابعة من كاشفيّته النوعيّة عن القصد.

وبما أنّ النصوص القانونيّة والشرعيّة يجب أن تكون ضابطة وتسدّ الطريق أمام محاولات التهرّب من القانون، لم يكن بالإمكان اشتراط الحجّيّة بالظهور الشخصيّ؛ لأنّ هذا سيؤدّي إلى شخصنة الظهور بالكامل، وسيشكّل حينها أفضل طريقة للتهرّب من القانون. فمصلحة القوننة والضبط رهينةُ إيلاء الأهمّيّة للظهور النوعيّ لا الشخصيّ[١].

وبناءً على تقسيمنا القصدية لقسمين، يمكننا تسمية أحد الأهداف اكتشاف القصد الواقعيّ، والآخر اكتشاف القصد الظاهري.

وفي الواقع، إنّ القصد الظاهريّ هو القصد الواقعيّ نفسه، إنّما من وجهة نظر العرف والمتخاطبين، لا من وجهة نظر الشخص نفسه. وتعقيباً على هذا الكلام يمكن القول: إنّ كلاهما يريد القصد الواقعيّ؛ ولكنّ اكتشاف القصد الواقعيّ في أحدهما من وجهة نظر الفرد؛ وفي الآخر اكتشاف القصد الواقعيّ من وجهة نظر العرف؛ أي القصد الذي يصحّ الاحتجاج به. ويمكننا أن نعدّ هذا التقسيم شبيهاً بالقصد الواقعيّ والافتراضيّ في الغرب.

٦. القصد الاستعماليّ والقصد الجدّيّ:

قسّم علم الأصول القصد والإرادة في مقام التكلّم والتخاطب إلى نوعين: القصد والإرادة الاستعمالية، والقصد والإرادة الجدّيّة. ويُراد من القصد الاستعماليّ أن يقصد المتكلّم استخدام اللفظ في معناه. أمّا القصد الجدّيّ، فيعني أنّ المتكلّم قصد وأراد معنى اللفظ الذي استخدمه[٢]. وقد يطلق - أحياناً - «**القصد التفهّميّ**» على القصد

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: الروحاني الحسيني، محمد صادق: زبدة الأصول، ط١، نشر مدرسة الإمام الصادق عليه السلام؛ مطبعة قدس، ١٤١٢هـ.ق، ج٣، ص١٠٤؛ الإيرواني الغروي، علي: نهاية النهاية، لات، (نسخة قرص مدمج: مكتبة أهل البيت عليهم السلام)، ج٢، ص٥٢.

(٢) مشكيني، اصطلاحات الأصول، م.س، ص٣٠؛ وانظر - أيضاً -: الخوئي، أجود التقريرات، م.س، ج١، ص٣٢.

الاستعماليّ، و«**القصد الواقعيّ**» على القصد الجدّيّ[١]، فالذي تجري الألفاظ على لسانه أثناء النوم أو خطأً لم يقصد استعمال تلك الألفاظ (انتفاء القصد الاستعمالي)، ومَنْ يجرِ هذه الألفاظ على لسانه هزلاً، لديه قصد استعمال تلك الألفاظ، ولكنّه ليس جدّيّاً (قصد استعماليّ دون قصد جدّيّ)[٢].

ثانياً: أقسام القصديّة:

سوف نحاول في هذه النقطة تفصيل الكلام في التقسيمات المطروحة لنظريّة القصديّة، وهي:

١. القصديّة المعنائيّة والقصديّة التفسيريّة:

أشرنا سابقاً في كلامنا عن القصديّة إلى أنّها ذات شكلين أو تفسيرين، حيث يرتبط أحدهما بنظريّة المعنى، والآخر بالنظريّة التفسيريّة وهدف الفهم. وتكمن أهمّيّة التمييز بين هاتين الجهتين في أنّه يمكن لشخص ما أن يقبل نظريّة القصديّة في أحد جوانبها دون الجانب الآخر. «**قد يعتبر أحدهم أنّ الهدف التفسيريّ هو معرفة القصد (أو القصد المصرّح به** «Or expressed intention») دون أن يدّعي أنّ القصد هو معنى النصّ. وفي المقابل، يمكن أن يرى شخص ما أنّ معنى النصّ رهين القصد الواقعيّ للفنان؛ دون أن يرى أنّ الهدف الوحيد للتفسير هو تحديد معنى النصّ [أو العمل الفنّيّ]. طبعاً، غالبيّة القصديّين يمكنهم تبنّي كلا التفسيرين»[٣].

ونحن نطلق على الشكل الأوّل للقصديّة «**القصديّة المعنائيّة**»، وعلى شكلها الثاني «**القصديّة التفسيريّة**».

(١) الحكيم، عبد الصاحب: منتقى الأصول (تقريرات بحث آية الله السيد محمد الحسيني الروحاني)، ط٢، طبع الهادي، ١٤١٦هـ.ق، ج٤، ص٢٠٨-٢١٢.

(٢) لمزيد من الاطلاع، انظر: السبحاني، جعفر، الموجز في أصول الفقه، ط٢، قم المقدّسة، نشر مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٠هـ.ق، ج١، ص١٨٩؛ الوسيط في أصول الفقه، ط٢، قم المقدّسة، نشر مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٩هـ.ق، ج١، ص١٩٧؛ الأنصاري، مرتضى: فرائد الأصول، تحقيق لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم قدس سره، ط١، قم المقدّسة، نشر مجمع الفكر الإسلامي؛ مطبعة باقري، ١٤١٩هـ.ق، ج٢، ص٤٥٨.

(3) Stecker, Interpretation and Construction Art, p50.

٢. القصديّة الواقعيّة والقصديّة الافتراضيّة:

تطلب القصديّة الواقعيّة فهم القصد الواقعيّ؛ أي ما قصده المؤلّف الحقيقيّ واقعاً. أمّا القصديّة الافتراضيّة، فتريد كشف القصد الافتراضي؛ أي ما يعتبره المخاطبون المثاليّون المعنى المقصود(٤). والمخاطب المثاليّ هو الشخص المطّلع بشكل كامل على «**الهيكليّة الداخليّة للنصّ والخلفيّة المحيطة المرتبطة بإبداعه**»(٥).

وبعبارة أخرى، يجب على الناقد أن يفترض قصد المؤلّف ويرسمه ويستشرفه (Hypothesize) وفق رؤية أحد المخاطبين المثاليّين(٦).

وفي الحقيقة، «لا يُعرّف معنى النصّ على أنّه الشيء الذي قصده الفنّان الحقيقيّ واقعاً؛ بل يعرّف على أنّه بالدقّة، ما يجب على المخاطب أو يجدر به ـ في ظلّ افتراضات معيّنة عن الخلفيّة ـ أن يفهمه على أنّه المعنى (المقصود)، حيث أطلقوا على هذا القصد اسم القصد الافتراضيّ، وعلى هذه النظريّة القصديّة الافتراضيّة»(٧). و«القصديّة الافتراضيّة تدّعي أنّ التفسير الصحيح للأعمال الفنّيّة يقف عند حدود التصوّر الأفضل لقصد الفنّان»(٨). وبعبارة أخرى، في القصديّة الافتراضيّة «يصادق على التفسيرات، بناءً على أنّ هناك احتمالاً أكبر لأنْ يكون المؤلّف المفترض قاصداً لها»(٩).

وقد عرّف القصديّةَ الواقعيّة أحد مؤيّديها على أنّها «الرؤيّة التي تعتبر أنّ التفسير الصحيح لعمل فنّيّ يحدّد قصد الفنان الذي عُبّر عنه في العمل»، ثم قال: «غالباً ما يُساء تصوير القصديّة الواقعيّة. وأحياناً يجري

(4) Stecker, Interpretation and Construction Art, p41; Lamark, "The Intentional Fallacy", p185.
(5) Lamark, "The Intentional Fallacy", p185.
(6) Lamark, "The Intentional Fallacy", p185; Noel, "Interpretation and Intention: The Debate between Hypothetical and Actual Intentionalism", p75; Davies, Stephen, Authors' Intentions, Literary Interpretation, and Literary Value, In: The British Journal of Aesthetics 2006 46(3):223-247, p223.
(7) Stecker, Interpretation and Construction Art, p41.
(8) Noel, "Interpretation and Intention: The Debate between Hypothetical and Actual Intentionalism", p75.
(9) Davis, p223.

الخلط بينها وبين نقد السيرة الذاتيّة [يسعى المرء من خلال نقد السيرة الذاتيّة إلى أن يتعرّف قدر الإمكان إلى حياة الشاعر، ثمّ يحاول أن يفهم معنى الشعر من خلال ما حدث في حياة الشاعر قريباً من زمن الكتابة. إذا أمكن ذلك[1].

كذلك تطرح القصديّة الواقعيّة - أحياناً - على أنّها النظريّة التي تعدّ التفسير الصحيح للعمل هو التفسير الذي يقدّمه الفنّان؛ في حين أنّه لم يفرّق بوضوح بين [تفسير الفنّان] وبين التصريح بالقصد. وهذا النوع من المعرفة يسبّب ضياعاً مضاعفاً. أولاً: لا يمكن المساواة بين التصريح بالقصد بشكلٍ عامّ، وتفسير السلوك الشخصيّ لهذا الفرد. فعبارة: «**لقد خطّطت للذهاب إلى المصرف قبل إغلاقه**» هي عبارة عن تصريح (أو على الأقلّ تقرير) للقصد، وليس تفسيراً. أمّا عبارة «**أعتقد أنّي ذهبت إلى المصرف بعد خروجي من المنزل مباشرةً**»، فهي تفسير للسلوك وليست تصريحاً أو تقريراً للقصد. ولا يمكننا أن ننكر أنّ هناك ظروفاً خاصّة تصعّب التمييز بين هذين الأمرين. وثانياً: إنّ تفسير الفنّان لعمله والتعبير عن قصده من الأثر أو تقريره هو أمر خارجيّ؛ ولا يمكن لأيّ من هذين الأمرين أن يكون التفسير الصحيح للعمل تلقائيّاً. وقد لا يكون تفسير الفنّان لعمله أفضل من تفسير الآخرين له، وغالباً ما يكون أسوأ. وقد يكون التصريح بالقصد خاطئاً أو كاذباً، وإذا كان قد انتشر قبل إتمام العمل، فيمكن تجاهله دون تحقيق»[2].

ولا بدّ من الإلتفات إلى أنّ القصديّة الافتراضيّة أو الواقعيّة لا تستلزم حصر معنى النصّ بقصد مؤلّفه (كما يظهر من بعض التعريفات)؛ بل هذا ينتج عن تبنّي مبنىً آخر يؤدّي إلى القصديّة الحصريّة التي سيأتي الكلام عنها في القسم التالي.

(1) Stecker, Interpretation and Construction Art, p30.
(2) Stecker, Interpretation and Construction Art, p32.

وأمّا القصديّة الواقعيّة، فتقسم إلى قسمين: القصديّة المعتدلة، والقصديّة الإفراطيّة.

وبناءً على القصديّة الواقعيّة المعتدلة (Moderate Actual Intentionalism) «التفسير الصحيح لعمل فنّيّ هو ذلك المنسجم مع القصد الحقيقيّ للمؤلّف؛ أي القصد الذي يدعمه العمل الفنّيّ»[١].

ولا تبحث القصديّة الواقعيّة المعتدلة عن «صور مطابقة لعقائد المؤلّف وآرائه وتجاربه ومشاعر وأفكاره»[٢]. و«هي تحصر اهتمامها بالمقاصد التي يدعمها النصّ. ويمكن في القصديّة الواقعيّة المعتدلة اكتشاف شواهد، من قبيل: الخلفيّة التاريخيّة – الفنّيّة للعمل، معتقدات المخاطبين المعاصرين له، السيرة العامّة لحياة المؤلّف، أبرز أعماله، وما شاكل، من خلال معنى النصّ أو معنى السياق، وترتيب الكلمات، وأفضل المعلومات»[٣].

ويتّضح من خلال ما سبق أنّ القصديّة الواقعيّة المعتدلة تبحث أولاً: عن المقاصد ذات الاتّجاه الظاهراتيّ لا النفسيّة، من جهة، ويدعمها النصّ من جهة أخرى. وثانياً: هذه نظريّة لا تتجاهل الشواهد الخارجة عن النصّ (سيرة المؤلّف، وأعماله الأخرى، والمعتقدات السائدة في زمن تدوين النصّ).

إنّ تأييد النصّ للقصد يكشف عن أنّ المراد مِن دعم النصّ هو أن لا يكون المعنى المقصود مخالفاً لنصّ الكلام، فضلاً عن جواز الاستدلال بشواهد من خارج النصّ لتحديد هذا القصد؛ بل يجب أن يكون منسجماً مع أحد احتمالات معنى النصّ، وإنْ كان احتمالاً مرجوحاً وضعيفاً.

(1) Noel, “Interpretation and Intention: The Debate between Hypothetical and Actual Intentionalism”, p75.
(2) Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, .(chapter10)
(3) Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter2.

فإذن، القصديّة المعتدلة إنّما تسمح بتطبيق تلك المقاصد على النصّ الذي توافق ظاهره أو على الأقلّ تؤيّدها شواهد خارجيّة معتبرة في حال كانت تخالف الظاهر.

هذان هما نوعا المقاصد التي يؤيّدها النصّ، أمّا المعنى المخالف لنصّ الكلام، فلا يمكن حمله على النصّ مع فقدان تأييد النصّ له، بحجّة أنّه مقصودٌ للمؤلّف.

ومع أخذ النقاط المذكورة سابقاً بعين الاعتبار، يمكن اعتبار القصديّة الواقعيّة الإفراطيّة (Extreme Actual Intentionalism) نظريةً مقابلة وبديلة عن تلك النظريّة، ففي القصديّة الإفراطيّة يكمن هدف التفسير في معرفة مقاصد المؤلّف، سواءً وُجِدَ مؤيّد لها في النصّ أم لم يوجد، وبما يشمل المقاصد النفسيّة والظاهراتيّة.

ويمكن كذلك تقسيم القصديّة الافتراضية إلى أنواع مختلفة (قسما: الحدسيّ والخرافيّة (Conjectural & Fictional))[1]. ولكنّ المهم – بحسب موضوعنا – هو التفريق بين نوعيها. وسبق أنْ ذكرنا أنّ القصد الافتراضيّ هو في الواقع أفضل فهم من المخاطبين. وبعبارة أخرى: الفهم العرفيّ من قصد المؤلّف. أمّـاً بالنسبة لهويّة هـؤلاء المخاطبين ومميّزاتهم والعرف المقصود، فأحد الآراء يقول إنّ المفسّر يجب أن يتوصّل إلى فهم المخاطبين الأوائل المعاصرين للنصّ. فما هو المعنى الذي تحتمل إرادته من النصّ، والذي قصده صاحبه بحسب المخاطبين الأصليّين الأوائل؟ هـؤلاء المخاطبون المطّلعون بشكل كامل على مفردات النصّ وخلفيّته والشواهد والقرائن المتّصلة وغير المتّصلة به، بسبب معاصرتهم للمؤلّف. وفي الواقع يجب أن يتوصّل المفسّر عبر هذه الرؤية إلى الظهور النوعيّ للكلام في عصر صدوره، كما يعبَّر في علم الأصول. فالمعنى المقصود – إذن – هو المعنى الأساس للنصّ في عرف زمن صدوره.

(1) Spoerhase, p81.

أمّا الرؤية الثانية، فتفيد أنّ على المفسّر أن يكتشف المعنى المقصود للمؤلّف، أو بتعبير آخر: يعيد بناءه من موقعه ومن الأفق المعنائيّ لعصره [عصر المفسّر].

إنّ هدف الفهم في هذه الرؤية هو واقعاً التوصّل إلى مصالحة مع المؤلّف في الظروف الحاليّة؛ وبعبارة أخرى: يريد المفسّر أن يكتشف لو كان المؤلّف يخطابه في الظروف الحاليّة ماذا كان سيقول له، وماذا كان سيطلب؟؛ وهذا يعني أنّنا أمام نوع من الفهم القصديّ العصريّ الذي يمزج بين محوريّة المؤلّف ومحوريّة المفسّر. ولعلّ نظريّة القصديّة الافتراضيّة لأمثال: ويليم اي، تولهرست (William E. Tolhurst)، وجرالد لفينسون (Jerrold Levinson)، الذين يربطون بين المعنى الأدبيّ و«معنى التصريح»، لا بينها وبين معنى القائل أو المصرّح، هي نظريّة من هذا القبيل، فهم يرون أنّ معنى التصريح هو: «الطرح الأوعى للمعنى المقصود للمؤلّف واستشرافنا له، انطلاقاً من موقعنا بوصفنا مفسّرين»[١].

ولعلّنا نستطيع توجيه اهتمام بعض علماء الفقه والأصول بـ«**دور الزمان والمكان في الاجتهاد**» وفق هذا المبنى، طبعاً بحسب أحد تفسيرات هذا الدور[٢].

وسنصطلح على القسم الأخير بـ«**القصديّة العصريّة**»، وعلى القسم السابق – الذي يدرس المعنى الأصيل الذي يقصده المؤلّف – بـ «**القصديّة الأصيلة**».

٣. القصديّة الحصريّة والقصديّة الشموليّة:

يرى الكاتب أنّه إضافة إلى التقسيمات السابقة، لا بدّ من طرح تقسيم آخر للقصديّة؛ بحيث يمكن الاصطلاح على أقسامه بالقصديّة الحصريّة

(1) Lamark, "The Intentional Fallacy", p185-186.

(٢) للاطّلاع على نماذج، انظر: مطهري، مرتضى: الإسلام ومقتضيات الزمان، ط١، طهران، نشر صدرا، ١٣٧٠هـ.ش، ج٢؛ الخميني الموسوي، روح الله: صحيفة النور، طهران، نشر مؤسّسة الوثائق الثقافيّة للثورة الإسلاميّة، ١٣٦٩هـ.ش، ج٢١، ص٦١، ٩٨؛ معرفت، محمد هادي: اقتراح (حوار)، مجلة نقد ونظر، العدد١، شتاء ١٣٧٣هـ.ش، ص٥٨؛ مكارم الشيرازي، ناصر: اقتراح (حوار)، مجلة نقد ونظر، العدد٥، شتاء ١٣٧٤هـ.ش.

والقصديّة الشموليّة. أمّا القصديّة الحصريّة في مجال المعنى (القصدية المعنائيّة الحصريّة)، فهي التي تعتبر أنّ قصد صاحب النصّ هو المعنى الكامل، وأنّ المعاني الخارجة عن قصد المؤلّف ليست معنىً للنصّ بتاتاً. أمّا القصديّة الحصريّة في مجال هدف التفسير (القصديّة التفسيريّة الحصريّة) فهي التي تعتبر أنّ الهدف القيّم في التفسير هو كشف قصد صاحب النصّ، وعدم الاعتراف بمشروعيّة الأهداف الأخرى أو قيمتها.

والقصديّة الشموليّة في مجال معنى النصّ (القصديّة المعنائيّة الشموليّة) هي التي تعتبر المعنى المقصود لصاحب النصّ مجرّد معنىً من معاني النصّ المحتملة والمعتبرة، إلى جانب إيلاء الأهمّيّة للمعاني الأخرى. وأمّا القصديّة الشموليّة في مجال هدف تفسير النصّ (القصديّة التفسيريّة الشموليّة) فهي التي تعتبر اكتشاف المعنى المقصود من صاحب النصّ أحد الأهداف الصحيحة والممكنة، إلى جانب اعتقادنا بوجود أهداف أخرى.

ولعلّنا نستطيع القول: إنّ هذا التقسيم يشبه التفسير الموسّع والمضيّق للقصديّة: «التفسير المضيّق للنظريّة القصديّة هو نظريّة ادي هيرش التي ألحق بها برادزلي ملصق «فرضيّة الهويّة»، وادّعى أنّ المعنى الكامن في عمل قصصيّ هو المعنى الذي قصده المؤلّف خلال ترتيبه لحروفه، في حين أنّ التفسير الموسّع يتضمّن استدلالاً على أنّ هناك ارتباطاً بين قصد كاتب القصّة وبين معنى العمل القصصيّ، أو أنّ هذا القصد يحدّد هذا المعنى بحسب بعض المفاهيم... فالتفسير الموسّع... لا يعتبر تحديد الكاتب الحقيقيّ لمعنى العمل القصصيّ تحديداً كاملاً شرطاً في صحّة التفسير، بل يعتبر أنّ مقاصد الكاتب مهمّة في التفسير»[1].

(1) Mikkonen, Intentions and Interpretations: Philosophical Fiction as conversation, chapter2.

ثالثاً: نظريّة القصديّة عند الأصوليّين الإماميّة:

إذا طالعنا الكتب الأصوليّة سنستنتج بالتأكيد أنّ أسلوب الفهم عند علماء الأصول قصديّ بالاتّفاق، ما خلا الشيخ المفيد قدس سره الذي يرى محوريّة النصّ فيما يتعلّق بالكلام الإلهيّ فقط لا غير.

ولمزيد من التوضيح، سوف نتوسّع في عرض البحث، حيث يمكننا - إجمالاً تحديد ثلاثة أهداف تفسيريّة في نظريّات التفسير عند المفكّرين الإسلاميّين، وهي عبارة عن التالي:

١. معرفة قصد صاحب النصّ بالمطلق (سواءً أدلّ عليه الكلام أم لا).
٢. معرفة مدلول الكلام بالمطلق (سواءً أكان مقصوداً لصاحب النصّ أم لم يكن).
٣. معرفة المدلول الذي يقصده صاحب النصّ.

وعلماء الأصول الإماميّة يتبنّون الرأي الثالث.

وقد يقال: إنّ الأصوليّ يرى تقدّم المدلول على المراد؛ والشاهد على ذلك ما يطرحه الأصوليّون فيما خصّ الوضع، والموضوع له، ومدلول الهيئات (مثل: صيغ الجمل الأمريّة وتركيباتها)، وبعض المواد (مثل: مفردة الأمر والنهي). ولكنّ هذا ليس صحيحاً؛ فالبحث في الأمور المذكورة لا يُراد منه سوى تشخيص ظهورات الكلام، وهذا لا يعني أنّ الظهورات حجّة ولها قيمتها بحدّ ذاتها. فالظهورات تكسب حجّيّتها بمساعة الأصول اللفظيّة، والأصول اللفظيّة تُستَخدم لكشف وتعيين المقاصد[1].

ويرى المحقّق الاصوليّ العظيم، مرتضى الأنصاريّ؛ وذلك في كتابه فرائد الأصول، أنّ جميع الأمارات التي تُستَخدم لتشخيص المعنى الحقيقيّ للألفاظ وظواهرها، أو من أجل تشخيص مقصود المتكلّم ومراده (مثل:

(١) انظر: الأنصاري، فرائد الأصول، م.س، ج٢، ص٤٩٩؛ الخراساني، كفاية الأصول، م.س، ص٣٢٤؛ الغروي الأصفهاني، محمد حسين: نهاية الدراية في الشرح الكفاية، تحقيق وتعليق: مهدي أحدي أمير كلائي، ط١، قم المقدّسة، دار نشر سيد الشهداء، ١٣٧٤هـ.ش، ج٢، ص١٦٣.

أصل الإطلاق)، هي من قبيل «**الصغرى والكبرى لتشخيص المراد**»[١].

وجاء في كتاب نهاية النهاية: «**حمل اللفظ على ظاهره.. قنطرة لتعيين المراد الجدّيّ**»[٢].

ومن جهة أخرى، لا يعتبر الأصوليّ المعنى الذي لا يتأطّر بالدلالات اللفظيّة (أعمّ من المدلول المطابقيّ والتضمنيّ والالتزاميّ) مدلولاً للكلام، ولذلك يُرفَض؛ فالمعنى الصحيح - بحسب الأصوليّ - هو أولاً: المعنى الذي يحتويه القالب الدلاليّ، وثانياً: ما يكون مراداً للمتكلّم.

ويمكننا اعتبار نظريّة الصوفيّة والباطنيّة في تفسير القرآن من نوع النظريّة الأولى؛ فغالبيّتهم ترى أنّ المعنى الظاهريّ للألفاظ ليس مقصوداً أصلاً، ومن الخطأ التفسير بالمعنى الظاهريّ. ولا تعتبرُ هذه النظريّةُ الالتزامَ بأطر التحادث ودلالة النصّ ضروريّاً[٣].

وأمّا بالنسبة لمن يتبنّى النظريّة الثانيّة، فلعلّ هناك الشيخ المفيد قدس سره من بين علماء الأصول الشيعة (وذلك بالنسبة للكلام الإلهيّ). ومبناه في هذا الرأي هو ما طرحه من تفسير خاصّ للإرادة الإلهية. وبحسب النظريّة الكلاميّة للشيخ المفيد قدس سره، فإنّ إرادة الله عزّ وجلّ هي فعله، وأفعال الله عزّ وجلّ غير مسبوقة بما يسمّى الإرادة والقصد والعزم والنيّة، ولا يمكن أن تكون كذلك؛ إذ أنّ هذا يستلزم وجود قلب وذهن لله جلّ جلاله، وهذا ما يوجب النقص والعيب فيه. وعلى أساس هذا المبنى، عندما يقال: إنّ المقصود من كلام الله هذا المعنى لا ذاك، أو العموم لا التخصيص، فهذا يعني أنّ الله خلق كلاماً يُفهم منه هذا المعنى لا ذاك (لا أنّ الله قصد حقيقةً معنىً ما دون الآخر)[٤].

(١) انظر: الأنصاري، فرائد الأصول، م.س، ج١، ص١٣٥-١٣٦.
(٢) الإيرواني، نهاية النهاية، م.س، ج١، ص٢٧٩.
(٣) انظر: عميد الزنجاني، عباسعلي: مباني و روشهاي تفسير قرآن [مباني تفسير القرآن وأساليبه]، طهران، مؤسّسة وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ للطباعة والنشر، ١٣٨٥هـ.ش، ص٣٢٢؛ الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان، بيروت، دار الكتب العربي، ١٤٢٣هـ.ق، ج٢، ص٦٧.
(٤) انظر: المفيد، محمد بن النعمان: مسألة في الإرادة، ط٢، بيروت، دار المفيد، ١٤١٤هـ.ق، ص١١-١٣.

أمّا التدقيق في هذه النظريّة، فيتطلّب الخوض في بحثٍ كلاميّ مطوّل، وهو ما يتجاوز حدود هذه المقالة، ولكن باختصار، يبدو أنّنا يمكن أن نفترض معنىً أوسع لمقصود الله تعالى ومراده في ظلّ العلم الإلهيّ؛ بمعاني المفردات أو الأهداف المترتّبة عليها، وبهذا لن تؤدّي هذه النظريّة الكلاميّة إلى تخطئة القصديّة في تفسير الكلام الإلهيّ.

وبهذا يتّضح أنّ أصوليي الشيعة قصديّون بالاتّفاق (حتى الشيخ المفيد قدس سره يتبنّى هذا الرأي في غير الكلام الإلهيّ، ولو أنّه تمكّن من حلّ معضلة تفسير الإرادة الإلهيّة في تفسير الكلام الإلهيّ لكان قصديّاً). لكن يجب أن نرى مع أيّ قسم من أقسام القصديّة تنسجم النظريّة المشهورة بين الأصوليّين.

لعلّنا لن نستطيع العثور على مَنْ يبحث عن المقاصد النفسيّة للشارع المقدّس، وستكون معرفة أمر كهذا محالة من الأساس، بسبب اعتقادهم بلا محدوديّة علم الشارع.

وتركّز قصديّة أصوليي الشيعة على القصد المعنائيّ - عادةً -؛ ولا يُبحث موضوع القصد المحفّز؛ إلا في خصوص قصد التقيّة أو قصد الإجمال (فالأصوليّ يرى أنّ المتكلّم إذا كان في مقام الإجمال، وكان بصدد تشريع وبيان أصل الحكم فقط، لا يصحّ حينها اعتبار كلامه مطلقاً، ولا الاستناد إلى لوازم هذا الإطلاق[1].

وكذلك الأمر بالنسبة للقصد المقوليّ، فليس هناك من يتعرّض له بالبحث. ولكن إذا أمكن تصنيف النصوص الشرعيّة من الطراز الأوّل إلى أنواع ومقولات مختلفة، بحيث يكون تشخيص المقولة مؤثّراً في المعنى (كالتفريق بين السورة، والدعاء، والخطبة، والقصّة،...)[2]، فسيكون

(١) انظر: الأنصاري، فرائد الأصول، م.س، ج٤، ص٥٠٥؛ الفياض، محمد اسحاق: محاضرات في أصول الفقه (تقريرات آية الله السيد أبو القاسم الخوئي)، ط٣، قم المقدّسة، دار الهادي للمطبوعات؛ مطبعة صدر، ١٤١٠هـ.ق، ج٥، ص٣٦٧.

(٢) انظر: البستاني، محمود: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلاميّ، ط١ (طبعة العتبة الرضويّة المقدّسة)، مشهد المقدّسة، مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤١٤هـ.ق، ص٢٨١-٣١٠.

هذا الموضوع جديراً بالبحث، وعندها يجب أن يأخذ مكانه بين الأبحاث الأصوليّة.

وأمّا بالنسبة للقصد الواقعيّ والافتراضي فلا بدّ من القول: إنّ الأصوليّين، وإن كانوا يسعون لاكتشاف المراد الواقعيّ للشارع، فإنّهم يحدّدون هذا القصد من خلال النظرة العرفيّة، وطبق القواعد العقلائيّة، وبعبارة أخرى: هم يسعون لتحصيل الظهور العرفيّ والنوعيّ للكلام. وقد سبق القول: إنّ هذه الفكرة لها جذورها في «**احتجاجيّة**» كلام الشارع، وهذا يصدق في كلّ مورد تبرز فيه هذه الميزة (كالقوانين والضوابط).

وبهذا الشرح يمكن القول: إنّ الرأي الأصوليّ يتوافق مع القصد الظاهريّ والقصد الافتراضيّ؛ وإنّما ليس لهذا القصد قيمةٌ ذاتيّة أصيلة، بل هو يكتسب أهمّيّته من كونه كاشفاً نوعاً عن القصد الواقعيّ.

وكذلك القصد الجدّيّ ـ من «**الناحية المصداقيّة**» (وليس المفهوميّة) ـ هو نفسه القصد الواقعيّ الذي يعدّ الهدف الأساس في بحث الأصوليّين.

وأمّا بالنسبة للقصد الاستعماليّ فهو في الواقع مقدّمة لوجود القصد الجدّيّ، وهو تبعاً لذلك طريقة لاكتشافه. أمّا في الموارد التي يتعارض فيها القصد الجدّيّ مع القصد الاستعماليّ، بناءً على الشواهد والأدلّة المعتبرة، يقدَّم القصد الجدّيّ (كتخصيص العامّ بمخصّص منفصل).

ويتركّز البحث الأصوليّ عادة على استكشاف القصد الداخليّ، ولكنّه لا يغفل عن الشواهد الخارجة عن النصّ. وأمّا القصد الخارجيّ، فإذا خالف ظاهر الكلام يمكن قبوله فقط حين يؤيّده شاهد خاصّ وقويّ (أعمّ من داخل النصّ أو خارجه). وبما أنّ القصد المخالف للظاهر ينسجم مع أحد احتمالات معنى النصّ ـ وإن كان احتمالاً ضعيفاً ـ، وبما أنّ هذا يعني تأييد النصّ للقصد؛ فعندها يمكن قبوله في ظلّ الشواهد والأدلّة، وفي هذه الحالة يكون المعنى قد «**أُرجع**» إلى معناه غير الظاهر، ويطلق على لفظ

- كهذا - في علم الأصول «**المؤوّل**»، وعلى حالة - كهذه - «**التأويل**»[١].

وإذا كان القصد الخارجيّ مخالفاً لنصّ الكلام، فلا سبيل لقبوله؛ إذ إنّ القصد المخالف للنصّ لا ينسجم مع أيٍّ من احتمالات معنى النصّ، وبالتالي لا يؤيّده النصّ، وإذا نُسِب إلى النصّ، فهذا يستلزم نقضه والتصرّف في عبارته، وهو أمر خاطئ من وجهة نظر العرف، أمّا بحسب وجهة النظر الأصوليّة فلا يمكن أن يكون معنى - كهذا - ذا أهمّيّة[٢].

وأمّا بالنسبة لرأي الأصوليّين الشيعة بلحاظ القصديّة الحصريّة أو الشموليّة، فيجب أن يُبحث بدقّة أكبر. فإذا كان المعيار في القصديّة الشموليّة الاعتقاد بـ«**معاني (للنصّ) أبعد من قصد صاحب النصّ**»، فأصوليّو الشيعة إجمالاً يدخلون في دائرة الشموليّين. وبحسب رأي الأصوليّين، أي عبارة يمكن أن تدلّ على أمور لا يقصدها المتكلّم، وهذه الأمور هي في الحقيقة من لوازم المعنى المقصود. ويسمّى هذا النوع من الدلالة في أصول الفقه «**دلالة الإشارة**»؛ كدلالة آية ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ عند ضمّها إلى آية: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾؛ على أنّ المدّة الأقلّ للحمل هي ستّة أشهر. أو دلالة آية نزول القرآن في شهر رمضان مع ضمّها إلى آية نزوله في ليلة القدر، على أنّ ليلة القدر في شهر رمضان المبارك.

وأمّا ما ذكرناه من أنّ الأصوليّين ينبغي اعتبارهم إجمالاً من القصديّين الشموليّين، فالسبب فيه أنّه يكفي أن يُقبل المعنى الصحيح المتجاوز لقصد صاحب الكلام مرّةً واحدة؛ لكي يثبت التوجّه الشموليّ [في القصديّة]. والأصوليّون - هكذا -؛ ولكن، ينبغي الإلتفات إلى أنّ

(١) انظر: المشكيني، اصطلاحات الأصول، م.س، ص٢٣٣.

(٢) إلا إذا كان الكلام الثاني مرجّحاً على عبارة النصّ - بحسب قواعد باب التعارض -؛ ففي حالة - كهذه - يُصرَف النظر عن العبارة الأولى؛ باعتبارها مختلقة وغير واقعيّة، وتستبدل بالكلام الثاني؛ باعتباره نسخة أصيلة وصحيحة.

(٣) الأحقاف: ١٥.

(٤) البقرة: ٢٣٣.

هذا لا يعني أنّ الأصوليّون يصحّحون كلّ ما يحسبه أصحاب التوجّه الشموليّ (أو اللاقصديون) معاني للنصّ، بل يجب أن تُبحَث هذه المعاني وتجري مطابقتها مع ما يتبّناه الأصوليّون. ولكن يمكن القول إجمالاً: إنّ الأصوليّين الذين يعتبرون الفهم العرفيّ والظهور النوعيّ مدار الاستنباط من الألفاظ، إنّما يعترفون بدلالة الكلام على المعاني إذا قَبِل العرف هذه الدلالة. ويبدو أنّ ما يسمّى - أحياناً - «**الظلال المعنائيّة للكلام**»[1] يقع ضمن هذا الإطار - أيضاً -. ومثال على ذلك: تصوّروا شخصاً يقول كلاماً ما بسبب الحسد والغضب من دون انتباه لحالته، أو أنّه كان منتبهاً ويحاول كتمان الأمر، ولكنّ كلامه كان بنحو يُفهَم منه بوضوح حالة الحسد والغضب. فهذه المعاني المفهومة تعتبر من الظلال المعنائيّة لكلامه، ومن مداليل كلامه، وإنْ لم يكن قاصداً لها. وفي موارد - كهذه - حيث يقبل العرف هذه الدلالة، تعتبر هذه المعاني من المعاني الصحيحة للكلام.

خاتمة (خلاصة ونتيجة):

يمكننا أن نقارن بين رؤيتين غربيّة، وأصوليّة للقصديّة، والخروج بعدد من نقاط الاشتراك والافتراق بينهما. فهناك بعض من القصديّين الغربيّين ممّن يسعى لاستكشاف المقاصد الواقعيّة، فيما يطلب البعض الآخر مقاصد المؤلّفين الافتراضيّة والظاهريّة.

وأمّا أصوليّو الشيعة فيفرّقون بين نوعين من النصوص: النصوص الاحتجاجيّة التي تنسجم مع هدف كشف المقاصد الظاهريّة والافتراضية، والنصوص غير الاحتجاجيّة المنسجمة مع هدف كشف المقاصد الواقعيّة. وقد رتّب الأصوليّون أصولاً منظّمة لكشف المقاصد الظاهريّة والافتراضيّة، وهذه الأصول تصلح شواهد عامّة على مقاصد

(١) انظر: هادوي الطهراني، مهدي: مباني كلام اجتهاد در برداشت از قرآن كريم [المباني الكلاميّة للاجتهاد في فهم القرآن الكريم]، ط٢، قم المقدّسة، مؤسّسة خانه خرد، ١٣٨١هـ.ش، ص١٠٨-١١١.

المؤلّفين، وتساعد على تحقّق الفهم (الأصول اللفظيّة والعقلائيّة)؛ وقليلاً ما اهتمّت القصديّة الغربيّة بهذه الأصول.

ويجري التركيز - عادةً - في أصول الفقه على القصديّة الأصيلة؛ ولكنّ بعض علماء الشيعة ركّز أخيراً على أهمّيّة المعنى العصريّ للزمان والمكان ودوره في الاجتهاد. وهذه مسألة يجب أن تلحق بالأبحاث الأصوليّة؛ لكي تُشخَّص ضوابطها ومعاييرها.

ويهتمّ الأصوليّون الشيعة بكلّ المقاصد المعنائيّة اللغويّة ـ سواءً منها الداخليّة بالنسبة للنصّ أم الخارجية ـ طالما أنّها لا تتناقض مع النصّ، ولا تخالف نصّ الكلام.

وأمّا بالنسبة للمقاصد النفسيّة، فليس لها أيّ أهمّيّة بتاتاً، ولم يهتمّ أحد بإعمال قواعد علم النفس لتحليل نفسيّة المؤلّف واستكشاف باطن ذهنه.

ولقد أبدت القصديّة الغربيّة اهتماماً أكبر بالمقاصد المقوليّة، ويجدر بالقصديّة الأصوليّة أن تهتمّ بها - أيضاً -.

وبما أنّ الأصوليّين الشيعة يقولون بوجود «**معانٍ صحيحة (للنصّ) تتجاوز نيّة صاحبه**»، فهم إذن يتبنّون القصديّة الشموليّة نوعاً ما. ولكنّ رأيهم ـ الذي يُعتبر بحسبه الفهم العرفيّ والظهور النوعيّ مدارا الاستنباط اللفظيّ ـ إنّما يعترف طبقاً له بدلالة الكلام على مجموعة المعاني التي يصادق عليها العرف.